صناعةُ المصطلحِ وسلطةُ الخطابِ الأيديولوجية

■ إيدروج لخضر[1]

ملخّص

تتعـدَّدُ سـبلُ توليـد المصطلحـات التي تشـحنُ مضامـينَ المفاهيـم بالمعاني والـدلالات، التي يريدُ الإنسـانُ أن يجعلَ منها أداةً لاسـتلاب العقول، ونَحْتها وفقَ الأهـداف التـي يُراد تحقيقُهـا. قد تكـونُ التكنولوجيـا وأدواتُها والبَحـثُ العلميُّ وأنواعُـه، مـن بين أكـثر الأدوات إنتاجًا للمصطلحـات، ولكنْ تقـومُ الأيديولوجيا بإنتاج مصطلحات فكريَّة ومعرفيَّة وإبداعها، بتداعيات تَسـتجيبُ لمتطلِّبات العَلاقة القائمـة بينَ البيئة والعقول المتعايشـة فيها. وترتبطُ المصطلحـاتُ بوظائفَ حيويَّة في المجتمع؛ من أهمِّها تلك التي تقترنُ بتنشـئة الأجيال على أنماط فكريَّة، تتفاعلُ فيهـا الـدلالاتُ الأيديولوجيـة لنَحْـت المعنى والمطالـب المعرفيَّة لمـشروع بناء العقـل والذَّات الجماعيَّين في المنظومة الفكريَّة والسوسـيولوجيَّة. إنَّ عمليَّةَ توليد المصطلحـات من بين أهمِّ الاسـتراتيجيَّات الثقافيَّة للتطبيـع الاجتماعيِّ للأجيال؛ بسـبب التداول الفكريِّ والمعرفيِّ للمصطلحات التي تنشرُها الأوعيَةُ الإعلاميَّةُ في البيئة العامَّة التي تشكِّلُ أكبرَ وعاءٍ للانتشار.

الكلمات المفتاحية: المؤسَّسـة الإعلاميَّة، توليدُ المصطلحـات، الثَّقافة الجماهيريَّة، الأيديولوجيا الناعمة، الخطاب.

١ - باحث من الجزائر، صاحب مؤلَّفات عدة، أمينٌ عام سابق لمركز البحث عن الإعلام العلمي والتقني ومؤسِّس مجلة المعلومات العلمية والتقنية.

المقدِّمة

إذا كان (ابـن خلدون) قد كتـب في المقدِّمة، أنَّ حقيقةَ التاريخ خبرٌ عن الاجتماع الإنسـاني الذي هـو عمران العالم، فإنَّ توليد المصطلحات هو الانتقال مـن أُطر فكريَّة تصف الواقع إلى تغيـير دلالات المعاني للخطـاب؛ لنحت العقول بما ينـاسـب أيديولوجيـا (Ideology) الفكر والمعرفة، وفق متطلِّبات السرديَّة المراد تفعيلها في الذهنيَّات لعقود قادمة. وقد تكون عمليَّة توليد المصطلحات أيضًا من بين أهمّ الوسـائل والأدوات التي تستخدم في تحقيق الإبادة الثقافية في سياقات الاستعمار واستبدال القيم والأخلاق والتنشئة الاجتماعية. لم تكن المسائل الاصطلاحية نقاطَ اهتمام واضحة لفلسـفة العلوم الاجتماعية بالحدَّة التي تعرفها المؤسسـات العلمية، رغم كونها تدخل في لبِّ التأطير الإبستيمولوجي (epistemology) للإشكاليَّات المعرفية المختلفة.

وقد يفـسَّر الاهتمام المتزايد بمثل هذه المسـائل بالتطـوُّرات التي ألقـت بمضاعفاتها على القطاعات الاجتماعية والتَّنظيميَّة للمؤسسـات الإعلاميـة، والثقافية، والبيئة الفكرية والمعرفيَّة. توليد المصطلحات مسـألة فلسـفية للمعرفة، ولكنَّها تقترب من السـياديَّة الثقافية، والسياسية، والأيديولوجية للشـعوب، والتي تتوقَّف عليها جميع العمليَّات القائمة في المجتمع، خاصَّة في ظروف أنشأتها تكنولوجيَّات الإعلام والاتصال الحديثة، وبيئة ثقافية بامتياز.

تأخذ عملية توليـد المصطلحات أهمِّية كبيرة في عصر المعرفـة والمجتمع ما بعد الصناعي الذي يمرُّ إلى مراحل متقدِّمة جدًّا من التطوُّر الإلكتروني والرقمي بسبب الانفجار المستدام في الإنتاج الفكري والمعرفي والإعلامي. لقد كان هذا الإنتاج الفكري سـببًا مباشرًا في المرور إلى نسق جديد من التَّنظيم المعرفي؛ لأنَّه فرض البحث عن سبل جديدة لمعالجة الكمِّيات الضخمة من المعلومات وتخزينها واسـترجاعها، والتي تلعب أدوارًا حيويَّة سواء في التَّحصيل العلمي، أو اتخاذ القرار، أو التَّخطيط التِّكنولوجي، أو التنشئة الاجتماعية في كلِّ المؤسسات الاجتماعية

التي تنشط في هذا المجال.

وتهتمُّ هذه الدِّراسة بتحليلٍ اجتماعيّ (Sociology) في الأبعاد الفكرية والثقافية والأيديولوجية لعملية توليد المصطلحات؛ من أجل الحسم في قضايا الترتيبات الثقافية للهُويَّة والذَّات الجماعية. كما تبحث هذه الدراسة في التَّوظيف الاصطلاحي الذي يستخدم من أجل إبادة الثَّقافات المغايرة بعد الهيمنة السياسية أو العسكرية على مناطق جغرافية محدَّدة. ومثل هذه الظروف معروفة أيضًا في الأوساط العلمية التي لا تخرج عن المركزية الغربية للعلوم والإبستومولوجيا، خاصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تلعب الأدوار الرئيسة في التحوير الأيديولوجي للفكر والثقافة. وانطلاقًا مما سبق فإنَّ هدف الدراسة هو الإسهام في الاطلاع على بناء السرديَّات في الخطاب الأيديولوجي بشكل عام، والإحاطة بالفكر المرافق للعملية من حيث الإنشاء والتداول. ترتبط إشكالية توليد المصطلحات ببنية واحدة ما دامت هذه العملية منبثقة من العمق الأيديولوجي للأنشطة الإنسانية، وهي موجودة في المجال التكنولوجي والعلمي وميدان الصراعات العسكرية، والمواجهات الفكرية، وتيَّاراتها الإعلامية بكلِّ ما تفرزه من أوعية ثقافية متعدِّدة، والتي توجَّه للاستهلاك الجماهيري. وتستحضر هذه الإشكالية الأداء الوظيفيَّ للمصطلح في بيئته المناسبة، بهدف ترسيم الحدود البيانية له وإدخال متغيِّرات جديدة في المجال التعريفيِّ للجمهور.

أوَّلًا: البيئةُ الأيديولوجية للمصطلحات

يعيش الإنسان في بيئة أيديولوجية[1] تصنعها القِيمُ، والمعتقدات، ومجموعُ المعارف المتداولة التي تنتجها الثقافة المِعياريَّة للمجتمع، والتي تكون مرجعيَّة يعتمد عليها الفرد في التعامل مع الأحداث، والظواهر السائدة في المجتمع، ومعيار المواجهة مع باقي الأيديولوجيات التي تتصارع معها. كما لا يمكن للفرد أن يدرك تداعيات الظاهرة الاجتماعية بعيدًا عن القاموس الأيديولوجي، والقوانين التي تحكم تنظير مفاهيم المصطلحات.

عندما فرضتِ الأدبيَّاتُ الغربية مفهوم الحداثة وما يغذِّيها من مصطلحات ترافقها في الطرح

١ - مفهوم الإيديولوجيا من أكثر المفاهيم تعقيدًا؛ لالتماس دلالاته في ثنايا اللغة وشحنات المفاهيم التي تحملها المصطلحات إلى درجة أنَّها صُنِّفت في سلَّم علم الأفكار، وبالتالي فإنَّها المغذِّي الأساس للجوانب السلوكية للمجموعات والأفراد، كما أنَّها من الأبعاد التي تميِّز الهُويَّة في وجودها وتماثلها مع الآخرين.

لتبسيط معاني المفهوم، أفرزت هذه الأدبيات معانيَ لكلمات خلال عقود طويلة، تبنَّاها الشرق في أغلب الحالات دون تحفُّظ؛ لأنَّ بيانها اقترن بحرِّية الإنسان وتطوير الإبداع وغيرها من المناقب الجذَّابة، غير أن وراء الحرِّية - التي كانت في مفهومها مطلقةً - لم يكن واضحًا أن تداعياتها ستكون وخيمةً على الجنس البشري، وأن كل المعايير والقيم المحافظة ستخضع للتغيير بما فيها من أنساقٍ سوسيولوجيَّة ومؤسَّسات اجتماعية؛ مثل المدرسة، ومؤسَّسات التنشئة الاجتماعية الأخرى. ومن الضروري الإشارة إلى أن مرحلة الحداثة وما يتبعها إنما هي خاصيَّة لا يمكن تعميمها على المجتمعات التي لا تنتمي للمجموعة العربية، كما يؤكِّد ذلك مؤسِّس المصطلح نفسه[1].

وقد يُعزى ذلك إلى التطوُّر المعرفي الذي تعيشه البلدان الغربية؛ لأن المصطلح المستخدم "موجَّه للدلالة على التطوُّر الحداثي الذي يشير إلى حالة الثقافة بعد التغييرات التي أثَّرت في قواعد الأداء في العلم، والأدبيات، والفنون ابتداءً من نهاية القرن التاسع عشر. وترتبط هذه التغييرات بأزمة السرديات الكبرى"[2]. إن انتقال الحداثي وما بعده إلى الأقاليم التي لا تنتمي إلى المعسكر الغربي، إنَّما جرى بهدف التقليد، وإنَّما كانت عملية تبنِّي كلِّ ما أفرزته الحداثة من مفاهيم مجرَّد اتِّباعٍ لأفكار اعتقد متبنُّوها أنها ستدخلهم إلى رواق الحداثة بالتخلِّي عن المفاهيم التي بُنيت عليها حضارتهم، كما هو حال الغرب. تتطرَّق أطروحة الحداثة إلى تفكيك الأنساق السوسيولوجيَّة المختلفة والسرديَّات والموروثات المقترنة بالمعتقدات من أجل طرح نموذج متجدِّد من الفكر، وأيديولوجيات المعرفة المستحدثة، بهدف تغيير أنماط المعرفة جملة تفصيلاً، دون إهمال الجوانب التي تدخل في بنيويَّة الهُويَّة المستهدفة.

لا يمكن للاختلافات الموجودة في البيئة أن توحِّد الأفكار لمجرَّد تبنِّيها، وبالتالي فإنَّ كلَّ محيط فكري يكون باستطاعته توليد المصطلحات التي تعبِّر فعلاً عن الثقافة ومكوِّناتها، وتجسِّد جميع ثوابت المجال التعريفي ومتغيِّراته الذي تنتمي إليه، على غرار القيم والمعتقدات والمعارف والعادات وغيرها من مكوِّنات الهُويَّة والذات الجماعية. وبهذا فإنَّ كلَّ ما تفعله المصطلحات على وجه التحديد هو أنَّها لا تنقل المعاني ما بين الأفراد فقط، وإنَّما تنقل جميع التصوُّرات التي

1 - Lyotard: La question postmoderne, p6.

2 - Lyotard: La question postmoderne, p7.

تسهم في انتشار البيان اللغوي والمعلومات التي ترافق المعنى للمصطلح أيضًا؛ باعتبارها الجزء المتمِّم للمفهوم الذي يتطابق مع ما يمكن أن يحمله من خصائص.

تتوقَّف عمليَّة توليد المصطلحات الفكرية والثقافية على شروط عدة، أبرزها الظروف السياسية التي تتحكَّم في الحرِّيات الفردية، خاصَّة ما يتعلَّق بالنشر والإبداع. فكلَّما كانت السلطة شموليَّة، اقتصر الإنتاج الفكري على تطويع مفاهيم الخطاب السياسي، وفقْد القدرة على إنتاج مصطلحات لا تتناسب مع التيَّار السياسي الذي يؤطِّر مجموع العمليَّات التي ترتبط بالفكر والمعرفة؛ بما فيها الممارسة السياسية لمهنة الإعلام والتواصل الاجتماعي.

ثانيًا: قطاعاتُ توليد المصطلحات

بالعودة إلى مفهوم الأَيديولوجيا، فإنَّهَا - أي الأيديولوجيا- تشمل الأفكار، والمعارف، والمعتقدات، والقيم والمعايير التي تحكم السلوك الفردي وحركيَّة الذات الجماعية، وبالتالي فإنَّ كلَّ المجتمع مصدر لتوليد المصطلحات، ولكن لا تكون كلُّها معتمَدةً في الممارسة؛ بسبب عدم اعتمادها من المؤسَّسات الاجتماعية والثقافية الموجودة في المجتمع. وعليه، سنتعرَّض إلى أهمِّ القطاعات التي تسهم في إنتاج المصطلحات في المجتمع؛ باعتبارها مجالاً خصبًا لاحتدام الصراع، خاصةً في عصر المعلوماتية وما يرافقها من تقنيَّات خطيرة على الإنسان.

١ - المؤسَّسات العلميَّةُ والبحثيَّةُ

لا يمكن للمصطلح الذي تنتجه المؤسَّسات العلمية والتكنولوجيَّة أنْ يكون إنتاجًا فكريًّا محايدًا؛ لأنَّ البيئة التي يخرج منها بيئة مشبَّعة بالقيم والأفكار والمعتقدات التي يتشرَّب منها الباحث والعلم. ومن المؤكَّد أنَّ للعلم إيديولوجيَّته الخاصة التي لا يمكنه أن يتجرَّد منها، وإن ادَّعى الموضوعية الشاملة. يبقى العلم والتكنولوجيا أحد أهمّ المتطلِّبات التي تسهم بقسط كبير في توليد المصطلحات المتخصِّصة والعلم، بواسطة تثمين نتائج البحوث والدراسات العلمية، والتي تبدأ بالنشر العلمي في الدوريَّات والمجلَّات المتخصِّصة، والكتب، وتنتهي بمجلَّات التعميم العلمي، وإنتاج الأشرطة العلمية التي تسهم في بناء معرفة عامَّة لدى الجمهور. خطوة تثمين البحوث بواسطة الكتابة هو استمرار الأحداث التي تسرد في مصطلحاتٍ تدعم الفكر والمعرفة،

وتزيـد من قوة اختراق الأيديولوجيا لمواقع خارجية، تمامًا كما وقع مع مفهوم الحداثة التي تبنَّاها العرب والمسلمون بشحناتها الغربية، وإن كانت منحطَّة وهدَّامة للأخلاق والقيم الإنسانية والدينية.

تنتقل إلينا المصطلحات الجديدة التي تنتجها الحضارة المتفوِّقة علميًّا والمسيطرة ثقافيًّا، عبر أنشطة الفكر والعقل التي يجري تداولها في المجتمع؛ مثل النقل والتعليم والترجمة والمطالعة؛ لتشـقَّ طريق الاستقرار في سـجلِّ المخيال والقيم والممارسـات اليومية للأفراد والمجموعات على حد السـواء، وتتحوَّل بعد ذلك إلى معيار سلوكي عام؛ لأنَّها تمكَّنت من استيعاب المعاني والدلالات كلها المقصودة من المصطلحات المنقولة.

وتنتقل إلينا هذه العلوم بواسطة أوعية علمية متخصِّصة تطوَّرت بشكل خاصٍّ بعد اختراع قوالب الحـروف للطباعة مجرَّة غوتنـبرغ (The Gutenberg Galaxy) منذ القـرن الخامس عشر، والتي أسهمت في الانتشار السريع للعلوم والمعرفة وغيرها من الأوعية المطبوعة، إلى أن فرضت حتميَّة تكنولوجية لمواجهة الطوفـان المعلوماتي؛ من أجل معالجة المواد المعرفيـة والعلمية وتخزينها واسترجاعها. وبهذا، فإنَّ تويم المنقول العلمي والفكري من حيث الأداء الأيديولوجي في الثقافات التي تستقبل الإنتاج العلمي والمعرفي، تكون واضحة عبر الأجيال؛ لأنها تُنظَّم وفق الآتي:

طابـع علمي دقيق: قـد يكون حياديًّا نوعًا مـا، وإن انحرفت بعـض مصطلحاته إلى الميدان الأيديولوجـي، فمثلاً؛ يقوم مستكشـف الأعاصير بإطلاق أسـماء يختارها هـو، غالبًا ما تكون مستوحاة من أسماء أبنائه أو بناته أو يختارها من الرصيد الثقافي. وهو الأمر نفسه في تسمية أنواع النجـوم أو غيرها. لقد أفرزت التطوُّرات العلمية والتكنولوجية الحاصلة في الميدان المعلوماتي على سـبيل المثال عـددًا من المصطلحـات التي قد يجهلها بعـض الأفراد في البلـدان الناقلة للتكنولوجيـا. فهل يمكن للفرد السـائر في طريق النموِّ أن يعرف مفهوم الحَوْسـبة الرقميَّة، وأن يدرك مفهوم مزارع المعلومات أو عمل الخوارزميَّات في العصر الرقمي المتسارع؟

طابع فلسـفي وحضاري: تتراكم التجارِب الإنسانية في الميدان المعرفي بشكل مستدام، ولا يمكن أن تتوقَّف ما دام التراث الفكـري متداولاً بين الأجيال عن طريق التلقين والتعليم والنشر في الأوعية العلمية والثقافية المختلفة. وهذا من أهمّ الأسباب التي جعلت المصطلحات الغربية تسيطر على الساحة الفكرية العالمية؛ سواء من حيث المفهوم أو الأعداد؛ لأن المنتجات الفكرية هي الكفيلة بانتقال المعاني لكلِّ كلمة أو عبارة أو مصطلح. وإن قامت بذلك في ظرف استثنائي

كما هــو حال بعض المفكريــن العرب، فإنَّ الإبــداع الاصطلاحي لا يمكنــه أن يتجاوز حدود منشوراته؛ لأن البيئة الحضارية لا يمكنها أن تكفل النفوذ والانتشار، كما وقع لمصطلح «العصبية» لـ «ابن خلدون» الذي بقي حبيس «المقدِّمة»، إلى أن جاء المفكِّر الغربي وقام بترجمته وتعميم مفهومه، في حين تعلَّم الطلاب العقدَ الاجتماعي ومفهوم الحضارة من النصوص الغربية، والتي جعلت من (دوركايم -Durkheim) و(مونتيسكيو-Montesquieu)، وغيرهم من أكبر العقول في العلوم الاجتماعية والإنســانية. ويذكِّرنا في هذا الصدد (سارتون-Sarton) بكل أسف وحسرة ــ مثلاً ــ أن العرب والمسلمين أهملوا العلم والمعرفة إلى درجة أنَّهم لم يتمكَّنوا من تعريف العالم بمفكِّر من العيار النادر مثل (ابن خلدون) الذي يعتبر من المؤسِّســيين لمعظم العلوم الإنســانية والاجتماعية، بما فيها علوم الإعلام والاتصال. فعــلاً، قد جاء تعرُّفه من الغرب متأخِّرًا، لتترجم أعماله إلى اللاتينية ويتعلَّم منه التفكير الغربي. وجاء متأخِّرًا أيضًا من نظرائه العرب والمسلمين، ليتمَّ تقدير ما قدَّمه للعلم والمعرفة تقديرًا مناسبًا[1]. ويقدِّم (الدليمي) أيضًا حقيقة غائبة عن عدد من الباحثين في كتابه «نظريَّات الاتصال في القرن الواحد والعشرين»؛ معلومات وافية عن رؤية (ابن خلدون) لمســائل التواصل الاجتماعي، مؤكِّدًا أنه كان المؤسِّــس الأول لمفاهيم الإعلام والاتصال، في ســياق أعماله المتعدِّدة الموسوعية، والتي ما زالت لم تُقدَّم للمجتمعات العربية بالطريقة التي يمكنها أن تُعتمد بوصفها سبيلاً معرفيًّا في الفصل الإبستمولوجي للعلوم[2].

طابع قانوني يجري في شــكل مراســيم تصدرها الدولة أو الحكومة، كــما حدث تاريخيًّا مع الإدارة البريطانيــة، التــي أعدَّت أدلَّــة لغويَّة يهودية لإعادة تســمية المعالم، والمــدن، والقرى، والوديان، والتضاريس الفلســطينية بأســماء يهودية؛ من أجل إبعاد المســتوطنين الصهاينة عن الثقافة العربية. ويدخل هذا النوع، كغيره من الأنواع الأخرى، في إبادة الثقافات المحلِّية التي لا يمكنها الصمود أمام غزارة الإنتاج الفكري للثقافات المســيطرة، أو مقاومة القوانين المتغطرسة التــي تفرضها كيانات عالمية تخرج عن القانون والأخلاق. وقد حدثت أمثلة كثيرة في الولايات المتحدة التي أعادت تســمية كل الولايات المتحدة باعتبارها مستعمرات بأسماء لا تمتُّ بصلة للثقافات المحلية التي سادت لقرون عدَّة لدى القبائل التي أبيدت بالسلاح والكلام.

1 - Georges Sarton, Islamic Science, p92.

٢ - عبد الرزاق الدليمي: نظريات الاتصال في القرن الواحد والعشرين، ص٢٦.

٢- الصِّراعاتُ السِّياسيَّةُ والحروبُ

تختلف ميادين الصراعات الحربية، والمواجهات العسكرية عن القطاع العلمي المنتِج للمصطلحات الفكرية في ماهيَّة المصطلح وأهدافه بشكل عام؛ لأنَّ فترات الحروب والصراعات السياسية بالمعنى الفكري والأيديولوجي، تعتبر أهمَّ فترة يتحدَّد فيها الصراع الفكري بين الأطراف التي تتصارع في الميدان العسكري أو السياسي.

عرف العالم صراعًا طويلاً مع نهاية الحرب العالمية الثانية[1] التي قامت لأسباب سياسية وأيديولوجية، وبالتالي كان من المفروض أن تكون تسميتها بالحرب الأوروبية وليس العالمية. لقد امتدَّت الحرب الباردة، والتي يمكن إعادة تسميتها بالصراع الأيديولوجي بين الليبراليَّة والشيوعيَّة، أو المواجهة بين القطبين العالميَّين، والمعسكرَين الغربي والشرقي زهاء سبعين عامًا أو أكثر. إنَّ التسمية التي تداولها العالم شدَّت الأنفاس لعقود طويلة، وكادت أن تُكتب لها نهاية مأساوية، فيما لو لجأ الطرفان المتصارعان إلى استخدام الرؤوس النووية؛ لأن الحرب الباردة قد تتحوَّل إلى حرب ساخنة بين الغرب الرأسمالي الليبرالي والشرق الشيوعي.

قام المعسكر الغربي أيضًا بإدراج مصطلح «التدخُّل الإنساني» باعتباره ذريعة من الذرائع التي تُستخدم عالميًّا، منذ أن جرى تثبيت هذا المبرِّر من قبَل الطبيب (برنار كوشنر - Bernard Kouchner)، و(ماريو بيتاتي -Bettati Mario) رجل القانون، للتدخُّل في إفريقيا أو في أي مكان آخر من طرف جيوش الرجل الأبيض، لأسباب يعتبرونها ويقدِّرون أنها إنسانية. غير أن هذا «الحقَّ» الذي كرَّسه الرجل الأبيض لا يُستخدم عندما لا يخدم مصالحه. أين التدخل الإنساني من المجاعة التي تقتل الأطفال والشيوخ في غزة؟! ألا يستحقُّ أطفال غزة ونساؤها التدخُّل لإنقاذهم من الموت بالصواريخ تحت هذا البند؟! أين كان هذا الحقُّ عندما قام الجيش الصربي وحلفاؤه في البوسنة بارتكاب الإبادة في حقِّ المسلمين؟!

لقد وجد بعض الباحثين فرصة مناسبة للتعبير عن هذا الأداء الذي مكَّن الغرب من الإطاحة بالشرق بواسطة ولوج مفاهيم الحرِّية والإصلاحات السياسية (Liberté et Perestroika) إلى العمق

---

١ - تسمية الحروب التي قامت في أوروبا في القرن الماضي بالحرب العالمية الأولى والثانية إحدى أهم التحريفات التي قام بها الفكر الغربي؛ ليبعد مسؤولية القتل والتنكيل والتعذيب عن نفسه، وينسبها لكل العالم، وإخلاء أوروبا من المسؤولية القانونية والخُلُقية أمام ملايين الموتى والمعطوبين. كذلك، ما يُزعم أنَّها محرقة لليهود قد جرت على أيدي الحكَّام الغربيين، ولا علاقة للعالم الآخر بموت اليهود وتقتيلهم. بل على العكس من كل هذا، لم يجد اليهود الأمن والاطمئنان إلا عند الأجناس الأخرى، بحيث تعايشوا معهم بشكل طبيعي.

الحضاري للطرف الثاني[1]. لعلَّ أكبر مسرحية اصطلاحية في تاريخ البشرية ما قام به الرجل الأبيض عندما أعلن أنه اكتشف القارَّة الأمريكية، وأن قارَّة أستراليا والأراضي النيوزلنديَّة أراضٍ خالية من السكان، أو أن من واجبات الاستعمار الفرنسي، والبريطاني، والبرتغالي، والإسباني، والهولندي، أن يتدخَّل في شؤون الأمم الإفريقية والآسيوية من أجل تطويرها وإخراجها من التخلف، لترى نور الحضارة الحقيقية، متجاهلًا أن هؤلاء لم يطلبوا منه ذلك. فكلمة اكتشاف لها دلالات العدم، في حين أن الشعوب بثقافاتها، وأنساقها، وأفكارها، كانت موجودة قبل أن يطأ الرجل الأبيض الأراضي التي ادَّعى أنَّها خالية من السكان[2]. ويشير فهمي إلى أن نشأة الصراعات الدولية والإقليمية تعود إلى الصراعات الأيديولوجية، التي تبدأ من منطلق صراع الأفكار والمعتقدات بين الأفراد (الخلافات)، وبين الشعوب (المصالح)، لتأخذ نمط حرب استنزاف الأفكار بحكم متطلِّبات التغيير، والتطوُّر السياسي، والفكري، والاقتصادي للمجتمع الذي تحكمه أيديولوجيا مقدَّسة لا يمكن تغييرها[3]. يستطيع الراصد في مثل هذه المسائل أن يجد الولايات المتحدة قد سارعت إلى ذلك من أجل تغريب أفراد القبائل وجعلهم ينكرون أصولهم، ولا يقبلون الذات الجماعية "المتوِّحشة»، معتمدة على:

- الإدماج القسريُّ للأفراد في الثقافة الأمريكية الجديدة، بتغيير تضاريس المناطق البرِّية وتحويلها إلى مدن في أشكال متناقضة مع البيئة الشعبية.
- سحب الأطفال من عائلاتهم وإدماجهم في مراكز داخلية؛ من أجل إعادة كتابة الخطوط الثقافية ونحت متغيِّرات جديدة تشكِّل لهم لاحقًا مجال التعريف الجديد للهُويَّة.
- فرض برامج تعليمية منبثقة من ثقافة المحتلِّ الأمريكي على القبائل المحلِّية وتعيين

---

1 - Sémelin Jacques: Communication et résistance, p56.

٢ - استخدم الاستعمار البريطاني مصطلح «Terra nullius" الذي يعني أن "الأرض لا يملكها أحد" أو "الأرض الفارغة"؛ لتبرير الاستيطان الأبيض في القارَّة الأسترالية، وهذا ما قام به في فلسطين لإهداء "أرض بلا شعب لشعب بلا وطن"، كما زعموا كاذبين على الشعب الفلسطيني، علمًا أن كلَّ هذا من صميم تضليل الأمم بمصطلحات وهميَّة لا تتطابق مع واقع الأمور ما دامت فلسطين أرضًا جرى انتداب الرجل الأبيض عليها، بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، وإعادة تشكيل الشرق الأوسط. وقد أثبتت العديد من مصادر المؤرخين المحايدين، بما فيهم اليهود أنفسهم الذين يرفضون جملة وتفصيلاً العنصرية العرقية. راجع في هذا الصدد:

Reed: La Controverse de Sion.

Porath: The emergence of The Palestinian-Arab.

٣ - أحمد فهمي: هندسة الصراع، ص٥١.

معلِّمين بيـض؛ من أجل ضـمان التلقين المسـتهدف لمحتويات التعليم والتنشـئة الاجتماعية، وهي السياسة المنتهجة من طرف الولايات المتحدة الأمريكية والمعروفة بالتعليم والصابون (Soap and education)[1]

- إيجاد بدائل للهُويَّة، بتأصيل مفاهيمَ جديدة كليًّا فيما يتعلق بالتطوُّر والحضارة.
- تثبيت الثقافة "الجماهيرية"، وإحلالها مكان الثقافات الشعبية التي سادت لقرون في المنطقة، عبر إدخال مفاهيم الغرب الليبرالي على الحياة والنَّسـق الاجتماعي المشاع للشعوب والقبائل، وعبر اسـتبدال أنماط الحياة «البدائيَّة» بحياة وعلاقات اجتماعية واقتصادية جديدة، يجري الترويج لها على أنَّها متطوِّرة وبعيدة عن «وحشيَّة القبائل».

تحاول الميليشيات الصهيونية استنسـاخ الإبادة الشعبية في الأراضي الفلسطينية بمساندة دولية مؤسَّسية؛ بما فيها الهيئة الأمميَّة التي لم تستطع فرضَ قوانينها على الغرب باعتباره صاحب النفوذ عبر قانون الفيتو[2]. كما أنَّ الهيئة الأمميَّة نفسها تعمل على تغيير مناهج التدريس في فلسطين المحتلة، والبلـدان العربيـة التي انهارت أمام إغـراءات غربية وهميَّـة بتحقيق الأمن والاسـتقرار لأنظمتها، والحفاظ على عروش حكَّامها. تصنع المدرسـة الصهيونية من الأطفال اليهود بالفكر المؤسَّسي[3] (برامج تعليمية وتنشـئة اجتماعية وتلقين وتدريس جغرافيَّة سيون (Sion) وليس فلسطين... إلخ.)

---

١ - يفيد هذا المصطلح في فلسفة التنشئة الأمريكية حتميَّة القيام بتعليم أبناء القبائل الأصليين؛ من أجل التوصل إلى غسيل العقول، وإعادة نحتها وفق ما يجري تسطيره في البرامج التي تفرضها الإدارة الجديدة عليهم بشكل قسري. ويؤكد (منير العكش)، أن مثل هذه الخطط قد نفَّذتها الولايات المتحدة على الشعوب الأصلية للمنطقة منذ منتصف القرن ١٩؛ بهدف نسف الكيان الوجودي، وتدمير أسس الهوية الأصلية وهي من بين الاستراتيجيات التي يستخدمها الاستعمار لسلخ الأفراد عن ثقافاتهم.

منير العكش: أمريكا والإبادات الثقافية، ص ١٥.

ويؤكد (العكش) في كتابه «أمريكا والإبادات الثقافية» أن المستوطنين الإنجليز عندما نفَّذوا التطهير الثقافي في القارة الأمريكية عملوا على عدة جبهات منها بثُّ كراهية الذات (Self Hatred) عند السكَّان الأصليين وعنصريَّة الذات (Internalized racism)، والخوف من الذات (Auto phobia).

منير العكش: أمريكا والإبادات الثَّقافية، ص١٦.

٢ - الحقُّ المطلق لمعارضة الأحكام التي تصدر عن مجلس الأمن، والذي لا يمكن إعادة عرضه بالصيغة نفسها، ولا يوجد حدٌّ معيَّن لمعارضة القانون الدولي من الأعضاء الدائمين في المجلس.

٣ - من الضروري التأكيد على أن كلَّ هذه العمليات تتمُّ وفق إعداد برنامج يشمل الدلالات والمعاني والبيان والمفاهيم، حسب العقيدة الصهيونية التي رفعت سقف الجريمة إلى الإبادة؛ لأن العربي الفلسطيني الجيد هو «العربي الفلسطيني الميت».

آلاتِ قتل ودمار مبرمجَين لاستهداف الفرد الفلسطيني والعربي بمجرَّد بلوغ سنِّ الرشد، بمحتويات تعليميـة عنصرية مقيتة، وغرسـها في مَلَكَتِهـم الفكرية والعقدية. وتريد أن تحقِّق بذلك اسـتثنائية تعليميـة؛ لأنَّها عملت في المقابل، على فرض نمط تعليمي عربي متسـامح مع اليهود والصهاينة، عـن طريق تكليف الرجل الأبيض الذي ينوب عنها في البلدان العربية. وتشـمل مطالب الصهاينة حذف البرامج التعليمية التي تبني العقيدة الجهادية لاسـتعادة الأقصى، والمطالبة بإلغاء الدروس الدينية في المساجد، ومنع الدعاء على اليهود؛ لأنَّ ذلك لا يخدم عملية حوار الحضارات والتعايش السلمي للشعوب. استخدام الإبادة في مختلف أشكالها وسيلة من وسائل تغيير النسيج الثقافي كلِّه بمتغيِّرات جديدة؛ لأنَّها لا تهدف إلى أثبات وجودها في بيئة جديدة فحسب، بل تريد من الأجيال ألَّا تسـتخدم أيَّ عنصر من عناصر الثقافات الشـعبية، بما فيها محو المعتقدات الدينية، وتحريف طقوسـها أو إفنائها نهائيًّا، كـما يشرح ذلك (دافيدسـون-Davidson) في حالة الولايات المتحدة الأمريكيـة، مؤكِّدًا على أنَّ التصفية الجسـدية لم تكـن كافيةً لإنهاء مَهمَّة إبادة السـكان الأصليين للمناطق الشاسعة، ممَّا استدعى استخدام التَّنصير، ونشر الدين المسيحي في جميع البقاع؛ لتغيير الفكر والمعتقد والطقس، وإبعاد هؤلاء عن أصلهم ومَسخ هُويَّتهم[1].

وفي المقابل قامت السـلطات الأممية بضغط غربي سـياسي قوي بعد أحداث ١١ سـبتمبر ٢٠٠١، عـبر صياغـة برامج تدريجيَّـة لضمان التعايش مـع الآخر. وقد اسـتفادت الجمعيات اليهودية[2]، والمنظمات الإسرائيلية من أحداث سـبتمبر ٢٠٠١، بفرض الأمر الواقع، وشـطب

١ - دافيدسون لورنس: الإبادة الثقافية، ص٤٥.

٢ - أكثر المؤسسات نشاطًا في هذا الميدان هي Impact-se التي تحظى بدعم الأمم المتحدة من أجل التوصُّل إلى فرض السلام وتجاوز خطاب الكراهية ومراقبة المحتويات المدرسيَّة التي لا تتناسب مع السلام المفروض على العرب وتغييرها بما يتناسب مع الأهداف الحيوية، والتي تصل إلى كسر الحواجز، لتدجين العقل العربي بمصطلحات مريحة، بغرض تجسير الهوَّة بين العداء والصداقة. ويشير الموقع الخاص بهذه المنظمة إلى أنها استطاعت تغيير عدد من المحتويات للمراجع التعليمية في المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وبلدان عربية أخرى، جرى إقناعها بحذف الآيات القرآنية الجهادية من الكتب في مراحل التعليم، لزرع ثقافة التعايش والسلام والتسامح. جميع المشاريع التي تراقبها في البلدان العربية مفصَّلة ومتاحة على موقعها الإلكتروني https://www.impact-se.org.

المنظَّمة الثانية هي منظَّمة مكافحة التشهير Anti Defamation League (ADL) والتي تتصدى لكل الأعمال التي تعادي الساميَّة منذ العشريَّة الأولى (١٩١٣) من القرن ٢٠. وتهدف حاليًّا إلى الضغط على البلدان العربية لإدراج مادة خاصة بالمحرقة في البرامج التعليمية للمستويات المختلفة لتحقيق التعاطف مع اليهود.

المصطلحات كلها التي تشجِّع على كراهية اليهود والصهاينة وتليين الخطاب؛ مستهدفةً تدريس المحرقة في البرامج التعليمية العربية في المستقبل باعتبارها مادَّة أساس في التاريخ، لمستويات متعدِّدة في مراحل التعليم. لقد فرضت الحركيَّة الاصطلاحية مراجعَ جديدة لفلسفة مستحدثة من مصطلحات، جرى إدراجها بالقوة الناعمة في النسق الفكري وموسوعة المصطلحات الأيديولوجية التي وصلت إلى حدِّ التعايش وتقبُّل الآخر، دون أن يحصل الطرف المسالم على أيِّ امتيازات واضحة.

٣ - المؤسَّساتُ الإعلاميَّةُ

استطاعت المؤسسات الإعلامية أن تستحوذ على أدوار مهمَّة وسيادية لعدَّة أسباب، يمكن أن نذكر منها: السلطة التي أصبحت تتمتَّع بها المؤسسات الإعلامية في المجتمع، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإنَّ المرحلة ما بعد الصناعية أفرزت تنظيمًا اجتماعيًّا مختلفًا، جعل من المواد والمنتجات الاجتماعية من أكثر الوسائل التي يمكنها أن تولِّد وتنبت المصطلحات وتثبِّتها في المخيال الجماعي، وتقوم بتعميمها وفق استراتيجيات النشر الناجعة بين أوساط الجماهير. لقد كانت المؤسسات بمنزلة الأدوات الرئيسة في المواجهة الباردة بين الشرق والغرب، وما زالت تقوم بالأدوار نفسها، بل إنَّها تطوَّرت أكثر إلى درجة أنَّه يمكن الحديث عن سلطة السلطات التقليدية الثلاث أو دبلوماسية إعلامية، تخدم المصالح السياسية بشكل مباشر بالتدخُّل في شؤون البلدان الضعيفة.

استطاعت المؤسَّسات الإعلامية وأوْعِيتُها المختلفة توليدَ مصطلحات ديناميكيَّة، تدخل في مجالات سيادية وسياسية، بعد تتبع المحتويات وقرائنها التي تنشرها وتتعامل معها جميع الأطراف. قد يدفعنا هذا السياق إلى تناول مصطلح «التطبيع» الذي يعني عودة المسألة الأصليَّة إلى طبيعتها الأولى بعد أن طرأت عليها تغييرات، وهذا ما يستهدفه الكيان الصهيوني من خلال اعتماد اللفظ إيَّاه في خطاباته. لقد أساء العرب اختيار أو اعتماد هذه الكلمة التي تعود بالمنفعة المعنوية على الكيان الصهيوني؛ باعتبارها تفيد عودة الأمور إلى حالتها الأولى؛ كأن العلاقات كانت موجودة، ثم انقطعت بين الطرفين، ثم عادت بعد مصالحة مفترضة. وهذا المصطلح يلغي المفهوم البياني الذي يفترض أن تكون عليه العلاقات العربية الصهيونية، وهي المعاداة

الدائمة. هناك أيضًا بوابة حضارية يخترق من خلالها الكيان الصهيوني الصفوف العربية ثقافيًّا، وهي حوار الحضارات أو التعايش الحضاري بين الدول والأمم، وأخرى سياسية، تجمع القادة العرب بنظرائهم الغربيين تحت مبرِّر محاربة الإرهاب أو تحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط أو الاجتماع الخاص ببلدان البحر الأبيض المتوسط للأمن.

اعتمد الكيان المحتلُّ للأراضي الفلسطينية دليلاً يحدِّد فيه أنواع الخطاب الذي يستوجب على أيِّ مسؤول عسكري أو سياسي استخدامه أمام الرأي العام العالمي ووسائل الإعلام. يحتوي الدليل على مقدِّمة من بضع كلمات لأيِّ سؤال محتمل تعوَّدت وسائل الإعلام طرحه، من أجل تحقيق وحدة فكرية أيديولوجية تخدم السردية الصهيونية اليهودية، والابتعاد عن الأجوبة التي يمكن أن تكون متناقضة في الموضوع نفسه[1].

من الممكن أن نستعرض بعض هذه المصطلحات في الميدان السياسي، وتحديدًا في سياق العلاقة بين كيان وبلد محتلٍّ، لا يمكنه إقناع الغرب المنحاز، أنه يتعرَّض لاعتداءات إباديَّة، منها:

- جيش الدفاع: والمقصود هنا هو الجيش المحتلُّ الذي لم يدافع يومًا عن حدود يملكها، والمفترض أن تكون تسميته جيش الاحتلال أو جيش الهجوم؛ لأنَّه دائمًا هو المبادر الأول لاحتلال أراضي بلدان سيادية أو الاعتداء على جغرافيا بلدان قائمة.
- الحرب: هذا مصطلح مضلِّل؛ لأنَّ الكيان المحتلَّ لا يخوض حربًا، بل يقوم بالاعتداء المنتظم على المدنيين في الأراضي المحتلة.
- العقاب الجماعي: هذا المصطلح الذي تَعَوَّد الإعلام وجميع الخطابات السياسية استخدامه يفيد في بيانه:
  - * أنَّ الحادثة الواقعة مصدرها طرف مذنب، وبالتالي يستحقُّ عقابًا.
  - * أنَّ الجزاء الذي يجري تطبيقه على المذنب مستحَقٌّ فعلاً.

---

١ لمزيد من التفاصيل ينظر في:

Frank Luntz: The Israel Project's 2009 Global language dictionary 2009. https://www.transcend.org/tms/wp-content/uploads/2014/07/sf-israel-projects-2009-global-language-dictionary.pdf

* أنَّ العقاب المطبق يستند على مسائل قانونية، ولا يمكن إيقافه إلى أن يستوفي المذنب كامل الصيغة المحددة.
* أنَّ هذا العقاب سيكون درسًا للأجيال التالية، على أن لا تعيد الخطأ نفسه، وإلا تعرَّضت لعقوبة قاسية مثلها أو أشد منها.
* أنَّ العقوبة تصدر دائمًا من الشخص العاقل الكبير أو من وليِّ الأمر، وتُطبَّق على من هو أدنى منه مستوى وأخلاقًا، وبالتالي يظهر الصهاينة بأنَّهم لا يخطئون، وإنَّما يحاولون تصليح الخطأ الذي أوقعه المذنب. ومفهومه أنَّ الكيان المحتلَّ يعاقب الشعب الفلسطيني لأنَّه أخطأ، وعليه يستحقُّ ذلك العقاب.

■ غلاف غزَّة: هذه تسمية لأراضٍ محتلَّة، وهي مستوطنات يهودية قائمة على أراضٍ فلسطينية، تتوسَّع في كل توغُّلٍ لجيش الهجوم.

يكشف (عبد الرحيم أحمد) في مشاركة له، في كتاب جماعي، الطريقةَ التي يعتمد عليها اليهود في تحديد منهجيَّة التلاعب بالمصطلحات للتوصُّل إلى تحقيق انتشار سرديَّاتهم ومعاني الكلام ومحتويات الخطاب في المواجهة مع العرب والمسلمين. وتكمن الطريقة الأولى في السطو على التراث العربي والإسلامي، وانتحاله لصالحهم، وتغيير كلِّ التضاريس الثقافية في المناطق المحتلَّة، تطبيقًا «للرؤية التلموديَّة في جواز الأغيار واغتصاب حقوقهم»[1]، ولكن بعيدًا عن الأخلاق، ما دامت تعتبر الأغيار من المخلوقات التي تشكل قوافل العبيد لخدمة اليهود .

أمَّا الطريقة الثانية، فهي تحريف معاني المصطلحات ومفاهيمها، والتي يقول عنها (عبد الرحيم)، إن المحتلَّ قد «سرَّب إلينا عبر وسائل الإعلام «العالمية» مصطلحات من بنات أفكاره وضمَّنها مفاهيمَ من سماديره (والسَّمادير، عفاك الله، أحاديث المخلِّطين والمخمورين!)؛ كأن يُطلق على ما يقوم به من قتل للأبرياء، وهدم الأبنية، واكتساح الأراضي، مصطلح «الدفاع عن النفس»، وفي المقابل يطلق على مقاومة الاحتلال، وصدِّ العدوان، والجهاد في سبيل الحرية والاستقلال، مصطلح الإرهاب»[2].

---

١ - أحمد عبد الرحيم: لغة المصطلح، ص ٣٠.
٢ - أحمد عبد الرحيم: لغة المصطلح، ص.ص٣٠-٣١.

ثالثًا: دورُ المصطلحات في تثبيت الخطاب

بالعــودة إلى النموذج الوظيفي للرســائل الإعلامية[1]؛ باعتبارهــا حاضنة المصطلحات التي تولِّدها مختلف المؤسسات، فإنَّ أهمَّ ما يمكن الاحتفاظ به، هو تثبيت الخطاب بمختلف شحناته من معــان ودلالات؛ بهدف التلاعب بالعقــول أو تثبيت رؤى جديدة أو نحــت أفكار وعادات تخالف ما دأب عليه الفرد والمجموعة من ممارسات في يوميَّات حياتهم. إذا كان الخطاب يصنع الوعــي فإنَّه في المقابل، يمكنه أن يصنع أيضًا الجهل، والتبعيَّة، والتلاعب بالعقول، واســتلاب إرادة الجمهور في التحرُّر. وتزداد هذه الظاهرة في العصر الرقمي بسبب اختراع مصطلحات مثل التراند (Trend)، المعتمِد على عدد المشــاركات أو عدد الأشــخاص الذين يتابعون خطابًا، أو منشورًا معيَّنًا متبوعًا بـ هاشتاغ (Hashtag) على مواقع التواصل الاجتماعي؛ لأنَّ الخطاب الذي لا ينتشر ولا تتوسَّع تغطيته الجغرافية، لا يؤثر في المجالات التعريفية التي تنتمي إليها الجماهير.

لقــد تفوَّقت الحضــارة الغربية على باقي الحضــارات بفضل ديكتاتورية العرض المســتدام للمنتجات الفكرية التي تفرضها على السوق الإعلامي والثقافي، بعد أن طوَّعت التكنولوجيَّات الحديثة للنشر، والتي أعطت صفة الوجود المســتدام (Ubiquitous) في كل مكان للمصطلح، فلا غرابة أن تكون السرديَّات الغربية في شتَّى المجالات مقبولة، إن لم نقل متفوِّقة على المعارف والأفكار التي يجري نشرها من طرف البلدان الأخرى، وبالتالي لا يمكن أن تحظى بالمكانة التي تسمح لها بحصد جزء من التراند العالمي. فانتشار مصطلحات وأيديولوجيا الفكر المنحرف، مثل الشذوذ الجنسي والجنوسة (Gender) وإباحة المساكنة (Cohabitation) أو (Concubinage)، وغيرها من المصطلحات التي تفسد الفطرة، إنَّما كانت نتيجة للإفراط في تقديس فردانيَّة الإنسان، وتزويدها بمفهوم مطلق للحرية.

هــذه الإباحية[2] الفكرية التــي تميِّز البلدان الليبراليــة، وفَّرت الغطاء الفلســفي لحرِّية توليد الكلــمات، خاصَّــةً بعد نجاح عصر التنويــر في تثبيت مفاهيــم الحرِّية المطلقة للفــرد، وإبعاد

---

١ - ليلى زيان: عملية التواصل اللغوي عند رومان جاكوبسون، ص.ص ٩٦- ١٠٠.

٢ - من المصطلحات التي ترافق الفكر المنحلَّ الذي يروِّج له روَّاد ثقافة العصر الجديد، والذين اعتمدوا على نافذة الخطاب لتمرير الشذوذ والمثليَّة والقتل المريح. قام الأستاذ (الدكتور فارس البياتي) بتوظيف هذا المصطلح، والتأسيس له في سياق الصراعات الثقافية والخُلُقية القائمة بين الحضارات. لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة: فارس البياتي: الإباحية الفكرية واستراتيجيات القيم، ص٢٣.

المؤسَّسات عن الرقابة الفكرية والتعبيريَّة. هذه الرؤية الجديدة هي التي تؤسِّس لبَّ الفكر المميَّز للعصر الجديد الذي يبسط نفوذه الأيديولوجية على الساحة الثقافية والفضاء العام، حسب ما تعرفه المدرسة الألمانية؛ لأن الفضاء العام لا يكتفي بنشر معنى الخطاب في البيئة الاجتماعية التي تتشبَّع بمعاني المعارف، بل يتجاوزه إلى ضرورة الاهتمام بالأبعاد البنيويَّة التي تبقى رهنَ التداول الاجتماعي بين الأجيال. هذا ما يؤكِّده (زياد) في كتابه «سجون الثقافة»، في تقديم المتغيِّرات الثقافية التي تحكم فهمَ الأحداث، والتي تنبثق من «المتغيِّر الثقافي الذي صنعته وسائل الإعلام الجديدة، وهو (...) الوعي المتخلِّق في ثناياها (...) وهو وعي لم يكن يعتقد أحد أنَّه بهذا القدر من الفاعلية والتأثير»[1]. إذن، لا تقتصر أدوار المصطلحات على شحذ الخطاب، بل يستمر مفعولها في مجالات أخرى ترتبط بالعمليات الفكرية للأفراد، ومن الممكن أن نلخِّصها في النقاط الآتية:

- تدعيم الأفراد بمرجعيَّة ثقافية وأيديولوجية تخضع لمنهجيَّة فكرية، حسب ما تحدِّده معاني المصطلحات التي تتجسَّد في المواقف والسلوك.
- بناء فلسفة عامَّة تقوم بتحديد تيَّارات المعرفة والأيديولوجيا التي تفرض على التيَّارات الفكرية انتهاجها، من أجل أن تتطابق سيادة دلالات المصطلح مع الفضاء الاجتماعي في الأطروحات المهيمنة على الخطاب.
- تهيئة الرأي العام والجمهور، بل النخبة على تقبُّل السرديات التي تنطبق على نوع المشروع المجتمع المستهدف، من خلال توليد المصطلحات التي تناسبه، والعمل على تكثيف انتشارها للتبنِّي.
- تغيير الوعي لتجاوز العقبات المحتملة التي قد تعيق تغلغل المصطلح في الوعي الجمعي. وتجري هذه العملية عبر مراحل عديدة، تبدأ بإدخال متغيِّرات جديدة في المجال التعريفي العام الذي يتَّبعه الأفراد، وتتواصل العملية بمحاربة الثوابت التي يحتكم إليها الأفراد، والتي توجد في المجال التعريفي نفسه، والذي تغزوه أنواع جديدة من المتغيِّرات، ترفدها مصطلحات متعدِّدة محمَّلة بالمعاني والدلالات نفسها.

---

١ - زياد صالح: سجون الثقافة، ص ٩٩.

هكذا يجري تركيب الهيكل الاصطلاحي لتدعيم المعجم الأيديولوجي الذي يجري استخدامه في صراع الحضارات، أو مواجهة أي نوع من أنواع الغزو الفكري. ولعلَّ الملاحظة التي يمكن ختام هذه النقطة بها، هي أن المجتمع الرقمي قد وفَّر على الثقافات المهيمنة على الفضاء أتعاب الانتشار، وكثافة التغطية، التي يجري إنتاجها وتعميمها على مجموع المتلقِّين للرسائل الإعلامية، وبالتالي زيادة في فعَّالية التلاعب بالعقول. تضمن المصطلحات انتقال وتناقل التراث بين المؤسَّسات الحديثة والأنظمة الاجتماعية التقليدية؛ لأنها تعمل على تجسير التواصل بين الأجيال بتوثيق جميع محتويات الفكر ودلالاته الأيديولوجية، لضمان عدم اندثار الروابط بين أفراد الأجيال المختلفة[1].

إذا كانت الحكومة تحتاج إلى استخدام العنف القانوني للحفاظ على الأمن والاستقرار للأفراد[2]، فإنَّ المؤسَّسات المنتجة للمصطلحات تكون بحاجة إلى نخبة من الكفاءات، لتوليد ما تحتاجه الثقافة والفكر والأيديولوجيا من مصطلحات، لتحقيق الانتماء وتوحيد الهُويَّة والذات الجماعية. وقد قامت البلدان الحديثة بإنشاء مؤسسات فكرية تسمَّى بالمؤسَّسات الفكرية أو عُلب الأفكار (Think Tanks) أو (Boites a idées) التي تختصُّ بمهمَّة التفكير فقط في جميع الميادين، ومهمَّتها الأساس توليد الأفكار، لتقوم المؤسَّسات الاجتماعية والسياسية بتبنِّيها على أرض الواقع، لهندسة العقول وتثبيت الولاء للسياسة والقرارات التي تشكِّل أصل وجود المجتمع، وتحافظ على تماسكه[3].

الخاتمة

يدور جوهرُ صراع الحضاراتِ على التَّوظيف القويِّ للمصطلحات التي تطرحها المنتجات الإعلامية وأوعيتُها الثقافية في المجتمع؛ لأنَّ كلَّ مصطلح يسهم بشكل مباشر في إثراء قاموس

1 - Anthony Giddens: The Consequences of Modernity, p6.

٢ - أرمسترونغ كارين: حقول الدم الدين وتاريخ العنف، ص١٠.

٣ - للاطلاع على أدوار هذه المؤسسات الفكرية التي برزت في عشرينيات القرن الماضي بسبب حاجة السلطة إلى منهجيَّة فكرية صائبة ينظر:

Donald Abelson: Do Think Tanks Matter .

التنشئة الاجتماعية والتطبيع الثقافي للأفراد. فالاهتمام الرسمي بالرؤية الآليَّة، بل تسخير مؤسَّسات لهذا الغرض، له ما يكفي من الدلالات الاستراتيجية للأدوار التي تؤدِّيها المصطلحات في وضع العقول؛ لأنَّ المصطلح ليس مجرَّد أداة تؤدِّي وظيفة معرفيَّة وعلمية، بل يجري تسخيره لمآرب متعدِّدة سواء أكانت فلسفية أم ثقافية أم فكرية وأيديولوجية؛ ليكون بذلك أبرز سلاح في المواجهات الحديثة التي عوَّضت الصراعات العسكرية، مثل الحرب الباردة أو الغزو الثقافي.

يجب ألَّا تكون قراءة التفوُّق الغربي على المجتمعات الأخرى في هذا الميدان قراءةً سطحية، تُترك للزمن لتعديل الأوضاع؛ لأنَّ التخلِّي عن قطاع الإنتاج الفكري، قد تكون له عواقب وانعكاسات خطيرة بالنسبة للفكر والهُويَّة، بل على الوجود الثقافي نفسه، خاصَّة أن المجتمع يعيش لحظات رقمية مؤدَّاها إلى العالم الرقمي المعزَّز أو ما يعرف بعالم ما وراء الحقيقة، تكون الغلبة فيها لأصحاب التكنولوجيات الحديثة للتواصل. والوصول لهذا المستوى من الصراع يجب أن يمرَّ بمرحلة الثراء الاصطلاحي والإنتاج الوفير للمعرفة، وهذا لن يتأتَّى إلا بإعادة العلم إلى مكانته العليا، وتوفير الهوامش اللازمة للنخب للتفرغ لمَهَمَّة الإنتاج العرفي، وعودة وسائل الإعلام وأوعية الثقافة إلى مهام بناء الإنسان، وفق الرؤية التي يجري تحديدها بناءً على خصائص المجتمع.

إنَّ الاهتمام بدراسة منهجيَّةِ توليد المصطلحات وتوظيفها في البيئة العامة للمجتمع، تساعد على حصر منهجية الاستخدام الأيديولوجي للمصطلحات وتوظيفها في الخطاب السياسي والثقافي. كما يسهم بدرجة كبيرة في تبنِّيها بشكل اعتيادي، إلى درجة أنَّها تتحوَّل إلى الأداة الفعَّالة في نافذة الخطاب التي تحوِّل الممنوع إلى سلوك عادي، خاصَّة إذا قامت الوسائل الإعلامية بالدور الترويجي لها على مدار عناوينها وبثِّها في أوقات الذروة.

ومن النتائج الخطيرة التي يمكن أن تنتج عن توليد المصطلحات هي إبادة الثقافات المحلِّية التي لا يمكنها مواجهة الثقافات المهيمنة على الساحة والفضاء العام؛ سواء بواسطة المنتجات الثقافية أو الأوعية الإعلامية أو الإلكترونية. ومن المرجَّح أن تزداد حرب المصطلحات قوَّةً وضراوة بين الأمم المعلوماتية، في حين تبقى الأخرى في وسط المستعمرات الرقمية، ما دامت لا تتحكَّم في إنتاج مصطلحاتها لتوظيفها بالشكل المناسب في الخطاب.

المراجع

- أحمد فهمي: هندسة الصراع النشأة والدوافع، شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ٢٠٢٠.
- فارس البيَّاتي: الإباحية الفكرية واستراتيجيات القيم، لا ن، لا م، ط١، ٢٠٢٤.
- زياد صلبح: سجون الثقافة، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٩.
- عبـد الرحيم أحمد: لعنة المصطلح معركة المصطلح؛ عبـد الرحيم أحمد وآخرون: حرب المصطلحات، دراسات تصحيحية للمفاهيم والمصطلحات المتداولة في الإعلام العربي الصهيوني، اتحاد الصحفيين العرب، لا م، ط١، ٢٠٠٢.
- عبد الـرزاق الدليمي: نظريات الاتصال في القرن الواحد والعشرين، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٦.
- كارين أرمسترونغ: حقول الدم – الدين وتاريخ العنف، ت: أسامة غاوجي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠١٦.
- لورنس دافيدسون: الإبادة الثقافية، ترجمة منار إبراهيم الشهابي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١ ٢٠١٦.
- ليـلى زيان: عملية التواصل اللغوي عند رومان جاكوبسـون، المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، المجلد الثاني - العدد (١): ١٥- مارس، ٢٠١٦.
- منـير العكش: أمريكا والإبـادات الثقافية لعنة كنعان الإنجليزيـة، رياض الرايس، بيروت، ط١ ٢٠٠٩.

- Anthony Giddens: The Consequences of Modernity, Stanford, Polity Press, 1990.
- Dominique Cardon: A quoi rêvent les algorithmes, Éditions du Seuil et La République des Idées, 2015.
- Donald Abelson E: Do Think Tanks Matter? Assessing the impact of public

policy institutes, Kingston-Montréal, McGill-Queen's University Press, 2002.

- Georges Sarton: Islamic Science, In Young T.C (Ed): Near Eastern culture: A symposium on the meeting of East and West- Princeton, New Jersey; Princeton University press, 1951.
- Jacques Sémelin: «Communication et résistance: Les radios occidentales comme vecteur d'ouverture à l'Est» Réseaux, Volume 10, n°53, 1992. PP: 924-; doi: https://doi.org/10.3406/reso.1992.1970. Consulté 25 Juillet 2024.
- Jean François Lyotard: La condition postmoderne, Paris, Les Editions de minuit, 1979.
- L. Douglas Reed: La controverse de Sion, Traduit de l'Anglais par Jane Doe, CA, Noontide Press, 1985.
- Yehoshua Porath: The emergence of The Palestinian-Arab national movement, 19291939-, Londres, Frank Cass, 1977.